ثنائيّة الشباب والشيب في شعر تميم بن أُبي بن مقبل

د/ إنصاف مُحَمَّد المومني د/ مُحَمَّد ماجد الدخيل
كلية إربد الجامعية – جامعة البلقاء التطبيقية – الأردن

المُلخَص

تتناول هذه الدراسة ظاهرة الشباب والشيب في شعر الشاعر المخضرم تميم بن أُبي بن مقبل، سيما أنَّ ابن مقبل من الشعراء المعمرين، وذاق حلاوة طعم الحياة في شبابه، ومن الطبيعي أن يتغير إحساسه بالحياة في مرحلة الشيخوخة، فيشعر بالضعف وفتور الهمة، ويتخلى عن ضروب اللهو وملذات الحياة ومباهجها، والمغامرات مع النساء، فقامت الدراسة برصد هذا التغيّر في حياة الشاعر من خلال ما تجلى منها بشعره من جهة، ومظاهر هذا التغيّر من جهة أخرى.

تدلّ النتائج التي توصّلت الدراسة إليها أنَّ ظاهرة الشباب والشيب في شعر "ابن مقبل" ذات صلة بنفسيته، فمثَّل له الشيب معاناة حقيقيَّة؛ فقد عانى الشيخوخة وما يترتب عليها من ضعف وصدود المرأة عنه، تفرَّد الشاعر عن شعراء عصره بأنَّه عزا ظهور الشيب في رأسه إلى الحوادث المفجعة التي أصابته وأثَّرت في نفسه، ويربط الشاعر بين الحب والشباب، ظهرت تقنية التصوير عنصراً مهماً في إبراز معاناة الشاعر معتمداً- في أغلب الأحيان- الصورة الاستعاريَّة المستمدة من بيئته.

كلمات مفتاحية: ثنائيَّة، الشباب، الشيب، شعر قديم، ابن مقبل

مُقَدِمَةُ :

يمرّ الإنسان بمراحل عمريّة متقلبة، ولكلّ مرحلة منها سماتها وملامحها، ولعلَّ أكثر هذه المراحل أهميَّة وخصباً هي مرحلة الشباب، حيث ينضج الفرد، ويدخل معترك الحياة بنشاط وحيويّة ويشقّ طريقه فيها؛ فيتعلم من المواقف التي يمرّ بها وتصقله التجارب، ويتوقع من كلَّ فرد استمرار العطاء والعمل المثمر خلال تلك المرحلة، التي لا بدَّ لها أن تنتهي لتخلّف الذكريات الحافلة بالعطاءات والإنجازات الباعثة للفخر بما قدّمه لمجتمعه أولاً ولنفسه ثانياً.

فحينما تغزو الشعرات البيض رأس المرء يكون ذلك إيذاناً له برحيل الشباب ودخول مرحلة جديدة من العمر، وينظر إلى الشيب على أنه ضيف مزعج، وثقيل الظلّ؛ لأنه يرتبط بالشيخوخة أو خريف العمر، فهو بداية النهاية.

ليس من شك في أن الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي عبّر عن إحساسه بالزمن في مواقف كثيرة، فالزمن بتحولاته وبإحساس الإنسان به لا يقلّ أهمية عن إحساس الإنسان بالمكان، فإذا كان الحديث عن الطلل تجسيداً للخراب ورسماً لعالم مبعثر ومتناثر، فإنَّ الحديث عن الشيب هو حديث عن الهرم والموت أيضاً.

إنَّ الشباب والشيب من الموضوعات التي انتشرت في الشعر العربي، ونادراً ما يخلو ديوان شاعر قديم من الحديث عن الشباب والشيب أو الإشارة إليهما، سواء أكان مجرد افتتاح تقليدي يلجأ إليه الشاعر في بعض قصائده، أم كان يمثل معاناة حقيقية بالغة لصاحبه كالشعراء المعمرين، فنجد الشاعر العربي القديم يمدح الشباب ويكثر البكاء عليه، ويذم الشيب والمشيب وما فعله به، وإن حاول بعضهم أن يهوّن وقع الشيب عليه، ويسلي النفس بإضفاء بعض المحاسن إليه، إلا أنّه ما يلبث أن يعود إلى حقيقة المشيب المؤلمة.

وتنبع **أهمية هذه الدراسة** من أنَّ الشباب والشيب شكلا ظاهرة ملحوظة في شعر "ابن مقبل" [1] ، فعبّر عن موقفه من

١ * هو تميم بن أُبي بن مقبل بن عوف بن حُنيْف بن قتيبة، ويكنى أبا كعب، كان ابن مقبل أعور، وهو شاعر مخضرم، قال عنه ابن قتيبة: " وكان جاهليا إسلامياً"، وهو من المعمرين بلغ مائة وعشرين سنة، تزوج ابن مقبل الدهماء في الجاهلية. وكانت تحت أبيه أولا، فخلف عليها بعد موته، " وكانت العرب تَزَوّج نساء آبائها، وهو من أشنع ما كانوا يفعلون... وكان الرجل إذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه، فورث

تحولات الزمن، وضيقه بمرحلة الشيخوخة وما تمثله من ضعف ووحدة وخواء، وحنينه إلى الشباب والصّبا، سيما وأن الشاعر عاش الشطر الأطول من عمره في الجاهلية قبل أن يدخل الإسلام، والشعراء الجاهليون كانوا من أكثر الناس شعوراً بقسوة الزمن، وإحساساً بسطوة الدهر؛ من هنا كان " الشباب والشيب" في شعره ذا صلة بنفسيته .

ولذلك **فهدف هذه الدراسة** هو تسليط الأضواء على هذه الظاهرة في شعر الشاعر المخضرم "ابن مقبل" وتجليتها للقراء،معتمدة في ذلك **المنهج الوصفي التحليلي**، الذي يقوم على تحديد ظاهرة الشباب والشيب في شعر "ابن مقبل"، ويتابع أشكالها المختلفة، ويتناولها بالوصف والتحليل ، ثم استنتاج موقف الشاعر من ثنائية الشباب والشيب وتعبيره عنها من خلال أشعاره، وما تعكسه هذه الأشعار من معاناة صاحبها .

أمّا بالنسبة إلى **الدراسات السابقة** ذات الصلة بموضوعنا هذا، فتجدر الإشارة إلى دراسات عديدة تناولت ظاهرة الشباب والشيب في الشعر العربي القديم بصورة عامة وصلتها بهذه الدراسة غير مباشرة منها: كتاب " الشيب والشباب في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي) لعبد الرحمن محمد هيبة ١٩٨١م، وكتاب " الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري" لثائر سمير الشمّري ١٩٩٨م،وهناك بحثان صلتها بهذه الدراسة أوثق هما: بحث " الهرم وشكوى الدهر/ الشيب والشيخوخة في الشعر الجاهلي" لحمدي منصور، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، المجلد ٣٩، العدد٣، ٢٠١٢م، ص ٧٣٦- ٧٤٩، ومن أهم ما توصل إليه البحث أنَّ الشاعر الجاهلي شعر بالندم والحسرة على شبابه المنصرم، ورأى في الشيب رسول الردى، ولم يعد أمامه للاحتفاظ بتوازنه سوى استحضار الماضي المجيد، وشدّ ما آلم الشاعر الجاهلي هو نفور المرأة وسخريتها منه لمّا حلّت به الشيخوخة .

وبحث " الشباب والشيب في شعر ابن المعتز" لصالح الشتيوي، مجلة آداب المستنصريّة،العدد٣٨، ٢٠٠٢م. وتبين من البحث أنَّ ظاهرة الشباب والشيب في شعر ابن المعتز ذات أبعاد مختلفة، من هذه الأبعاد جزع الشاعر على فقده الشباب، فالشيب يعنى انقضاء فترة اللهو ، بل هو رسول الردى، وفي بعض الأحيان يقرن الشيب بالعمل الصالح والتقوى؛ لأنَّ الشيخوخة- في رأيه- تكفل للإنسان حسن التصرف، ويعزو الشاعر شيبه للظروف السياسيَّة التي اعترت حياته وحياة أسرته وحياة قومه العباسين من قتل وتشريد، ولذا شاعت ألفاظ الحزن والموت في ثنايا أشعاره .

حفلت هذه الكتب والأبحاث بالعديد من الملحوظات والاستنتاجات النقديّة القيّمة حول ظاهرة الشباب والشيب في الشعر العربي القديم، إلا أنَّ ما يميّز هذه الدراسة أنَّها اقتصرت على تناول الظاهرة في شعر شاعر واحد هو "ابن مقبل" لم تقف عنده الدراسات الأخرى التي تناولت عصره إلاّ من خلال إشارات محدودة؛ ولذا ستكون نتائج هذه الدراسة أكثر تحديداً وأكثر جلاءً لتجربة الشاعر في صراعه مع الزمن من الدراسات السابقة التي تناولت الظاهرة في شعر شعراء فترة زمنية محددة، ودراستها في شعر شعراء الفترة جميعهم، كالعصر الجاهلي، أو العصر العباسي، وقد تلتقي بعض نتائج هذه الدراسة مع نتائج الدراسات السابقة ؛ وذلك لأنَّ تجربة الصراع مع الزمن وتقلباته والشيخوخة تجربة إنسانيّة عامة .

وكلّ دراسة تناولت هذه الظاهرة من خلال مفردات حددها كاتبوها.

نكاحها... وقد فرّق الإسلام بين رجال ونساء آبائهم، وهم كثير... منهم تميم بن مقبل، وقد عاش في الجاهلية دهرا، ثمَّ أدرك الإسلام فأسلم، وعاش طويلاً في الإسلام أيضاً. للمزيد ينظر: (أبو جعفر محمد بن حبيب ١٣٢٨هـ). (و ابن قتيبة ١٩٥٠م). (ابن رشيق القيرواني ١٩٦٣م) .(وابن حجر العسقلاني ١٣٢٨هـ).

وتوافرت هذه الظاهرة في دواوين شعرية قديمة [٢] ، فيكاد لا يخلو ديوان شعر عربي من موضوع الشيب، فحينما يغزو الشيب رأس الشاعر يكون ذلك إيذاناً برحيل الشباب، مما يدفعه لبكاء العمر الفائت وهجاء الشيب.

ويمكن أن نتعرَّف إلى موقف "ابن مقبل" من ثنائية الشباب والشيب في ضوء المفردات الآتية :-

تحولات الزمن وتقلباته، ضياع الشباب

فالشيب إشارة للتحوّل، إنه تحوّل نحو النهاية والفناء، إنّ هذا الإحساس يعزز الشعور بالمرارة والانطفاء، وفي هذا، قال ابن مقبل:(الديوان ١٩٩٥م)

لَقَدْ تقوَّسَ لَحْيَيْهِ ولِمَّتُهُ
شَيْبٌ، وَذَلِكَ مِمّا يُحْدِثُ الزَّمَنُ

فالشعرة البيضاء" تعلن القضاء والفناء والتناهي، هذا هو موقف الإنسان في تاريخه كله، فإنه يشعر دائماً بتهديد القضاء، وتوعد الفناء، وهو ينظر إلى الموت اليقين" . (فالتر براونه ١٩٦٣م). وعمد الشاعر إلى استخدام الجملة الفعلية الماضوية المسبوقة بـ (لقد) في مطلع البيت التي يعدها النحاة (سيبويه ١٩٨٤م) واقعة في جواب قسم محذوف، أي وكأنّ أصل الكلام: قسمي لقد، أو لعمري لقد أو ما شابه، وجاء هنا في إطار توكيد الكلام وتدعيم ما يقوله الشاعر.

ولعلّ من أول صور الشباب والشيب أن الشاعر يأسف على ضياع شبابه ويجزع لفراقه، قال (الديوان ١٩٩٥م)

طَرَقَتْكَ زَيْنَبُ بَعْدَ مَا طَالَ الكَرَى
دُونَ المَدِينَةِ، غَيْرَ ذِي أَصْحَابِ
إلاَّ عِلافِيَّـأً، وَسَيْفَـا مُلْطَفَـا
وَضِبِرَّةً وَجْنَاءَ ذَاتَ هِبَابِ
طَرَقَتْ وَقَدْ شَحَطَ الفُؤادُ عَنِ الصِّبَا
وَأَتَى المَشِيبُ فَحَالَ دُونَ شَبَابِي

وواضح أن الشاعر يحنُّ إلى عهد الشباب والصِّبا، فيبين أن الشباب هو مرحلة التصابي والهوى، بينما الشيب فهو مرحلة الاستلاب والحيلولة دون عالم الفعل، ونحسّ نغمة الحزن والألم تغلب على الشاعر في هذه الأبيات، فهو يعيش الوحدة وفقدان الأصدقاء؛ ولعل ذلك بسبب مشيب الشاعر وابتعاده عن مغامرات الشباب، ونلاحظ شيوع الجملة الفعليّة في الأبيات لتفصح عن شدة انفعال الشاعر، وهذا الانفعال متأتٍ من انفعال نفسي حاد، قد يكون سببه الخوف من الشيخوخة وما يترتب عليها من ضعف وفتور، فقد اختار الشاعر الأفعال التي تعبر عن الفقد والضياع؛ في قوله:" شحط الفؤاد عن الصِّبا" و " أتى المشيب فحال دون شبابي " .

وبرع الشاعر في البيت الثالث بنقل تجربته النفسيّة وأثر الشيب في حياته، فكان استخدام أداة الربط (الفاء) الشطر الثاني من البيت (وأتى المشيب فحال دون شبابي) الذي ترتب عليه انتهاء الشباب ومباهجه.

وتبدو قدرة الشاعر في استثمار العلاقات الصوتيه واستغلالها في التعبير عن اللحظة الشعوريّة التي يصدر عنها، أو في الدلالة على موقفه النفسي؛ فقد كرّر صوت (الشين والفاء) - في الأبيات السابقة- وهما مهموسان واحتكاكيان (كمال بشر ١٩٩٠م) ، يلائمان حالته اليائسة، ومعاناته الكبيرة.

ويأسف الشاعر لانقضاء عهد الشباب وحلول عهد الشيخوخة، يقول : (الديوان ١٩٩٥م)

قَـإِمَّـا تَرَيْنِي قَـدْ أَطَـاعَتْ جَنِيبَتِـي
وَخُيِّطَ رَأْسِي بَعْدَ مَا كَانَ أَوْفَرَا
وَأَصْبَحْتُ شَيْخَاً أَقْصَرَ اليَوْمَ بَـاطِلِي
وَأَدَّيْتُ رَيْعَـانَ الصِّبَا المُتَعَوِّرَا
وَقَـدَّمْتُ قَدَّامِي الـعَصَا أَهْتَدِي بِهَـا
وَأَصْبَحَ كَرِّي لِلصَّبَابَـةِ أَعْسَرَا
فَقَدْ كُنْتُ أُحْذِي النَّابَ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً
فَأُبْقِي ثَلاثَاً وَالوَظِيفَ المُكَعْبَرَا

فالشيب رمز للتحول و الضعف والانقياد والكف عن الباطل واللهو، فمرحلة الشباب بكل ما فيها من فتوة وفعل وحيوية وإنجاز هي عبارة عن شيء مستعار ويُردُّ سريعاً، ويحلُّ محله مرحلة الشيخوخة بما فيها من ضعف وانقياد، ولجوء الشاعر إلى الموازنة بين مرحلتي الشباب والشيخوخة، يكشف لنا معاناته وإحساسه بالحزن والألم على مرحلة الشباب، التي انقضت سريعاً، وحلَّ محلها عهد الوهن والاستسلام والانقياد، ومن العسير على من وصل إلى هذه المرحلة من العمر أن يظن أنه بقادر على اللهو والمغامرات مع النساء من جديد، فهذا عهد ولّى ولا يمكن العودة إليه.

واستخدم الشاعر أسلوب الشرط بـ (إمَّا) التي بدأ بها حديثه عن مرحلة الشيب بكل ملامحها ولم يأت بالجواب إلا في بداية حديثه عن الماضي (مرحلة الشباب) وبذلك كشف عن إحساسه بهذا التحول الذي طرأ على حياته ، ثمّ جاء الفعل (أصبح)

٢ للمزيد ينظر الدواوين: ديوان بشر بن حازم الأسدي ١٩٩٥ م، ديوان الأعشى الكبير(د.ت)، ديوان امرئ القيس(د.ت)، ديوان عدي بن زيد العبادي ١٩٦٥م، ديوان ذي الأصبع العدواني ١٩٧٣م، ديوان دريد بن الصمة ١٩٨١م، ديوان سلامة بن جندل ١٩٦٨م،شعر أوس بن حجر١٩٧٩م، ديوان عمرو بن قميئة ١٩٩٧م هذه الدواوين أمثلة ليست على سبيل الحصر

الدال على التحول مكررا في موضعين ليعبّر عن ضيق الشاعر

ولعل الشاعر عندما ارتدّ إلى الماضي – إذ ذكر ذكرياته-كان يرمي إلى تحقيق التوازن مع حاضره الذي يحمل الخوف والرعب والقهر، وهذا أسلوب شائع في الشعر العربي القديم.(إبراهيم السنجلاوي ١٩٨٧م).

الشبّاب المُحبّب والشيّب القاتل بين القَبول والرفض الساخر

ويربط ابن مقبل بين الشباب والحب، فهو يؤمن أنّ الشباب هو المرحلة التي تفتن بها الفتيات، أمّا المشيب فهو مرحلة الشيخوخة والكبر وتوقف التعلق بالهوى والعشق،قال : (الديوان ١٩٩٥م)

هل القَلْبُ عَنْ دَهْمَاءَ سَالٍ فَمُمْسِحُ
وَتَارِكُهُ مِنْهَا الخَيَالُ المُبْرِّحُ
وَزَاجِرُهُ اليَوْمَ المَشِيبُ، فَقَدْ بَدَا
بِرَأْسِيَ شَيْبُ الكَبْرَةِ المُتَوَضِّحُ
لَقَدْ طَالَ مَا أَخْفَيْتُ حُبَّكِ فِي الحَشَا
وَفِي القَلْبِ، حَتَّى كَادَ بِالقَلْبِ يَجْرَحُ

وواضح أنّ الشاعر يستذكر عهده مع(دهماء)، أيام الشباب، أيام العشق والهوى، ويكره المشيب ويبغضه؛ لأنّه وصل إلى سن الشيخوخة، فتغير حاله، ونحس نغمة الأسى واليأس تتسلل إلى قلبه في الأبيات السابقة، فالشيب علامة الكبر توضّح في رأسه، أما عهد الشباب فقد ولّى وحلّ محله(عهد الشيخوخة)؛ ليقطع عهد اللهو والعشق، وقد عمد الشاعر إلى أسلوب التكرار، فقد كرر كلمة (القلب) وكلمة (الشيب) في البيت الثاني؛ ليبن لنا أثر الشيب على نفسيته ومشاعره ، فالتكرار" أسلوب تعبيري يصوّر انفعال النفس بمثير، واللفظ المكرّر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان" . (عز الدين السيد ١٩٨٦م) ، ولم يقف الشاعر عند أسلوب التكرار ليبين ضيقه بالشيب، بل عمد إلى الربط بين الشيب والشيخوخة من خلال الإضافة والنعت في قوله:" شيب الكبرة المتوضح"؛ ليؤكد أن عهد الشباب قد ولّى وحلّ محله عهد الشيخوخة والكبر، وبدا هذا واضحاً لا مجال لإخفائه، وعمد الشاعر لاستخدام الأفعال بصيغة الماضي، وجاء اثنان مؤكدان بقد (فقد بدا، لقد طال)؛ ليؤكد ثبات حاله، فالشيب زاجر للشاعر عن التصابي، فالعشق مع الشيب، لاسيما – شيب الكبرة – ذنب لايغتفر، فيصبح الشيب إشارة للتحوّل، إنّه تحوّل نحو النهاية والفناء. وقد نجد الشاعر يتشبث بشبابه، ولا يرغب في التخلي عن هذه بالحاضر الذي أصبحه ، وحنينه إلى الماضي وما يتصل به من

المرحلة وما فيها من لهو ومتعة، لكنه يعلن أن الشيخوخة والشيب تقف عائقاً في وجه هذا التمتع، فقال : (الديوان ١٩٩٥م)

فَأَمْسَيْتُ شَيْخَا لا جَمِيعَا صَبَابَتِي وَلا نَازِعَا مِنْ كُلِّ مَا رَابَنِي يَدَا
تَزَوَّدَ رَيَّا أُمِّ سَهْمٍ مَحَلَهَا
فُرُوعَ النِّسَارِ فَالبَدِيَّ فَتَهْمَدَا

فالشاعر أمسى شيخاً لا يملك شدة الشوق في الهوى فالفعل أمسى يدل على التحوّل ويشي بالتلاشي والانطفاء والانتهاء، إنَّ الشعور بالضعف والانهزام في اللحظة الحاضرة يعيد الشاعر إلى ذاته، ولكن ليس إلى ذاته الساكنة، وإنما إلى الذات الفاعلة في الماضي، فعندما تيقَّن الشاعر من أنَّ الشيب غزا رأسه بدأ باستعادة الصور المبهجة من حياته – الماضي - فيسترجع مرحلة الشباب بما فيها من فعل و فحولة، فيصف مغامراته مع النساء في أماكن عدة، كاشفا عن هذه الفحولة، وهي ما تؤكد حضوره وحياته في هذه المرحلة من الشيخوخة.

وقد جاءت ألف المد في قافية الأبيات؛ لتحدث نوعا من البطء الصياغي، الذي يتلاءم وطبيعة المعجم الدلالي، " فضلاً عن أنّ ألف المد من أطول حروف اللين صوتياً" . (مُحَمَّد عبد المطلب ١٩٩٥م)

ويربط "ابن مقبل" بين الشباب والحب، فهو يؤمن أنَّ الشباب، هو المرحلة التي تُفْتَنُ بها الفتيات، فقال : (الديوان ١٩٩٥م)

أَنَاظِرُ الوَصْلُ أَمْ غَادٍ فَمَصْرُومُ
أَمْ كُلُّ دَيْنِكَ مِنْ دَهْمَاءَ مَغْرُومُ
أَمْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ دَهْمَاءَ إِذْ طَلَعَتْ
نَجْدَيْ مَرِيعٍ، وَقَدْ شَابَ المَقَادِيمُ

يكشف البيتان عن حالة القلق والاضطراب التي يعيشها الشاعر، فقد لاح الشيب في مقاديم رأسه مؤذناً بانقضاء فترة الشباب، أمّا المحبوبة (دهماء) فموقفها منه ما زال غامضا لم يُكشف بعد ، ويرع الشاعر في التعبير عن حاله التشظي التي يعيشها من خلال توظيف أساليب متنوعة، فاستهل المقطوعة باستفهام (بالهمزة) يجلو حالة الضياع التي يعشها، وأتبع ذلك باستفهام مكرر بأداة الاستفهام (أم)؛ ليقارن بين عهدين مختلفين : عهد الشباب والوصل، وعهد الشيب وما فيه من صرم وانقطاع ، وعمد الشاعر إلى أسلوب التكرار ليعبر عن حالته، فقد كرر اسم الفاعل (ناظر/ غادٍ) وسبق كل منهما باستفهام جعلها تجلو حالة الاضطراب والقلق التي يعيشها الشاعر، ثم كرر اسم المفعول (مصروم/ مغروم) وبهذا

يبيّن أثر الفعل فيه؛ وبالتالي جاءت أكثر انسجاما مع المعنى الذي أراده الشاعر، وأكد الشاعر حنينه إلى عهد الشباب، عهد المغامرات العاطفية بتكرار اسم محبوبته (دهماء) ، إضافة إلى التقديم والتأخير في عبارة (أم كل دينك من دهماء مغروم) فقدّم شبه الجملة (من دهماء) على خبر المبتدأ (مغروم) ، وعملية التقديم والتأخير "ليست مجرد نقل للدال من مكانه المفترض له سلفا إلى مكان آخر قبله أو بعده على مستوى النطق والكتابة فقط، وإنما هي في جوهرها تمثّل تزاوج الفكر واللغة ، وذلك أنَّ تغييراً في حركة الصياغة يتبعه بالضرورة تغيير في الفكر الذي تجسده ، فما الفكر واللغة إلاّ وجهان لعملة واحدة .(رمضان صادق ١٩٩٨م) ، لكن الشيء الذي يعرفه الشاعر ومتأكد منه هو انتهاء مرحلة الشباب وحلول مرحلة الشيب ، من خلال عبارة (وقد شاب المقاديم) فالعبارة مؤكدة، وبهذا فإنَّ الشاعر يعلم يقيناً أنَّ عهد الشباب بحسنه ونضارته، وما فيه من مقومات الوقوع في الحب ودواعيه والاستمتاع قد انتهى وحلَّ مكانه عهد الشيخوخة عهد الخواء ، فيصبح كل ما سبق غير مقبول منه .

ويكتسب البيت الأول بعداً موسيقيّا من خلال التصريع (مصروم / مغروم) وقد امتدح النقاد القدماء مثل هذا الأسلوب، يقول قدامة بن جعفر (١٩٧٩م) "وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك، لأنَّ بنية الشعر إنما هي التسجيع والتقفية، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليهما كان أدخل في باب الشعر، وأخرج له من مذهب النثر. "،

ومن الواضح أنَّ الشاعر استخدم التجريد – كثيراً- في البيتين السابقين، ولعلَّ هذا التجريد يوحي بحالة نفسيَّة ممزقة لدى الشاعر، فكأننا أمام شخصيتين لا شخصية واحدة: الشخصية الأولى تمثّل موقف الإنسان الغافل اللاهي، والثانية: تجسّد موقف الإنسان العاقل والبصير، والشاعر يبث آراءه إلى الشخصية المتخيلة؛ لأنه لا يستطيع مواجهة الموقف- نفسيّاً- فأراد أن يسقط ما في نفسه على الآخر، فأخذ ينصحه، وفي هذا فرار مما يعانيه وهروب منه [٣]. " (موسى ربابعة ٢٠٠١م)

ويصرح "ابن مقبل" أن الشيب مستقبح لدى النساء، ويجعلهن يصددن عنه، ويستهزئن باستمراره في مغازلتهن، كما أن الشيخ لا يليق به أن يلهو، إذ قال : (الديوان ١٩٩٥م)

هَزِئَتْ مَيَّةُ أَن ضَاحَكْتُهَا
فَرَأَتْ عَـــارِضَ عَـوْدٍ قَدْ نَرِمْ
وَبَيَاضاً أَحْـــدَثَتْهُ لِمَّتِي
مِثْلَ عِيدَانِ الحَصَادِ المُنْحَصِمْ

إنَّ عبارة (هزئت ميّة) التي استهل بها الشاعر الأبيات تجلو بوضوح المعاناة النفسيّة للشاعر بما يشي به الفعل (هزئت) من استخفاف واستهانة من قبل المرأة بالشاعر وأحاسيسه ؛ لأنه تجاوز سن الشباب والحب والغزل، ومع أنَّ البياض عـــادة رمز للرشاقة والجمال، لكن الشيب الأبيض من إمارات الكِبَرِ وعلو السن والضعف والوهن.

ومن الواضح أنَّ الشاعـــر استعان بالصور السمعية في الشطـر الأول من البيت الأول ، والـصور البصريـّة في الشطر الثاني من البيت الأول والشطر الأول من البيت الثاني؛ ليحيط بالموضوع من جميع أطرافه.

كما استخدم الشاعر "الميم الساكنة" في القافية؛ تجسيدا لموقف الألم والاختناق الذي يكتنفه. وتستوقفنا تشبيهاته التي استمدهـــا مـــن بيئته؛ وذلك في تشبيهه الشيب بعيدان الـزرع الـــذي جـف وأحـصد.

وقد استخدم ابن مقبل أربعة أفعال- في البيت الأول- وجميعها جاءت ماضية، ونلاحظ أنَّ الفعلين : (هـزئت)، و(ثرم) يعبّران عن الانقطاع والانفصال؛ وذلك في حديثه عن علاقته بالنساء، وفي عبارة(وبياضا أحدثته لمتي)، ما يشي بالظهور والوضوح؛ وهذا أمر طبيعي فالإنسان لا يستطيع – دائماً- أن يخفي الشيب، ونلاحظ تكرار حرف "العين" وهو من الحروف الحلقيّة، وتكراره ربما يكون مرتبطاً بالوضع النفسي الذي يعيشه الشاعر، وهو وضع يشي بالمعاناة والضعف، و تكرار حرف "الحاء" بما فيه من بُحّة تصور الصوت الخافت المعبر عن اليأس والوهن، وفي تكرار حرفي " الحاء والصاد" متتالين في كلمتين متتابعتين في قوله:(الحصاد المنحصم) تعبير عن الفصل والكسر وكأننا نسمع هذا الصوت المنبعث عند كسر العود أثناء قراءة هاتين الكلمتين ، ومن هنا يكون وقع الكلمات الموسيقي ذا أثر في تشكيل المعنى وتقريبه للمتلقي ؛ ولذلك " فإنَّ معنى القصيدة إنما يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعانٍ، وذلك التكثيف للمعنى الذي نشعر به في أية قصيدة أصيلة إنما هو حصيلة لبناء الأصوات." (أرشيبالد ماكليش ١٩٦٣)

والشيب هو الذي يجعل الكواعب ينظرن إلى الشاعر في ريبة واستهجان، قال : (الديوان ١٩٩٥م)

مَا لِلْكَوَاعِبِ لَمَّا جِئْتُ تَحْدِجُنِي
بِالطَّرْفِ، تَحْسِبُ شَيْبِي زَادَنِي ضَعْفَا
يَتْبَعْنَ مِنْ عَـــارِكٍ بِيضٍ سَلاَئِقُهُ
بَعْضَ الَّذِي كَانَ مِنْ عَـادَاتِـهِ سَلَفَـــا

إنَّ رؤية الشيب في رأس الشاعـــر جعل الغواني ينظرن إليه في ريبة من قوته ومكانته؛ لأن الشيب دلالة ضعف وتراخٍ، فقد

[٣] والتجريد يعني: في أصل اللغة هو إزالة الشيء عن غيره في الاتصال، وفي الاصطلاح" فأما حد التجريد فإنه إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه، وإنَّ التجريد ينقسم قسمين:أحدهما: تجريد محض، وهو أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك، والآخر: تجريد غير محض، وهو خطاب لنفسك لا لغيرك.

تقدمت به السن، ولم يعد يثير لدى النساء إلّا مشاعر القلق والريبة.

وقد استخدم الشاعر ستة أفعال – في البيتين السابقين- منها أربعة جاءت مضارعة، وفعلان جاءا بصيغة الماضي. ونلاحظ أن الأفعال: (تحدجني) و(تحسب) و (يتبعن) كلها تعبر عن موقف النساء من الشاعر في المرحلة الحالية، وهي تكشف عن ضيق الشاعر بالشيب وتأثيره على مجريات حياته وعلاقته بالنساء، وهو عندما عمد إلى التصوير مشبهاً نفسه بالبعير (العارك، البيض سلائقه)؛ ليبين أنَّ هذا الشيب بسبب تقدم سنه، وأهوال الحياة ومصاعبها التي مرّت به.

ويصرّح الشاعر أن المشيب يُثير العجب لدى الفتيات، فإنَّ الشيخ لا يليق به أن يلهو مع النساء، قال :

(الديوان ١٩٩٥م)

لِفَتَاةِ جُعْفِيّةٍ لِيَالِيَ تَجْتَنِي ثَمَرَ القُلُوبِ بِجِيدِ آدَمَ خَاذِلِ

عَجِبَتْ لِيَ الجُعْفِيَّةُ ابْنَةُ مَالِكٍ أَنْ شَابَ أَصْدَاغِي وَأَقْصَرَ بَاطِلِي

فالشيب مكروه عند الفتيات؛ لأنّ طبعهنَّ أن يبادلن الشباب الحب والغزل، لكن الشيب يدفع صاحبه ليكف عن الباطل واللهو، فالشيب هو السبب في تغيّر حال الشاعر ودفعه للكف عن اللهو، والشاعر يدرك أن عهد الشباب ولّى؛ ومن هنا استعمل عبارة (أقصر باطلي)، فقد حلّت الشيخوخة محل الشباب ، والشيخوخة تجسيد لزمن يوحي بالتعقل في معالجة الأمور؛ لذلك انسحب من زمن اللهو ؛ لأنَّ زمن اللهو قد ولّى وانقضى .

والشيب هو الذي يجعل الغانيات يستهزئن بالشاعر ويهجرنه، قال : (الديوان ١٩٩٥م)

قَالَتْ سُلَيْمَى بِبَطْنِ القَاعِ مِنْ سُرُحٍ لَا خَيْرَ فِي العَيْشِ بَعْدَ الشَّيْبِ وَالكِبَرِ

واسْتَهْزَأَتْ بِزَبُهَا مِنِّي. فَقُلْتَ لَهَا: مَاذَا تَعِيبَانِ مِنِّي يَا بْنَتَيْ عَصْرِ ؟

يكشف الشاعر في البيتين السابقين عن عمق معاناته مع الشيب، فهو في حوار مباشر مع المرأة، وهي تعلن موقفها من الشيب وكرهها له، و ترى أنَّه لا خير في حياة الرجل بعد أن يصل إلى مرحلة الشيخوخة، فكأنّ ظهور الشيب في رأس الرجل علامة من علامات الضعف والموت، وتطوّر الموقف إلى السخرية والاستهزاء.

وقد استغلَّ الشاعر أسلوب الحوار في البيتين السابقين " ومن خصائص هذا النمط- الحوار- المحافظة على وحدة الكلام ولمّ أطرافه؛ إذ به تتوحد الأشتات المتناثرة؛ ليصنع منها الهيكل العام، كما يحقّق تسلسل الأفعال والصور وتلاحق المعاني تلاحقاً متنامياً " (سعيد الأيوبي ١٩٨٦م). ونلاحظ تنامي الفعل الصادر من المرأة من حيث قوة التأثير في الآخر(قالت، استهزأت).

وكان "ابن مقبل" يرفض- في بعض أشعاره- أن يكون الشيب علامة لعلو السن، وفتور الهمة، فقال : (الديوان ١٩٩٥م)

وَتَنَكَّرَتْ شَيْبِي، فَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ المَشِيبُ بِنَاقِصٍ عُمْرِي

سِيَّانِ شَيْبِي والشَّبَابُ إِذَا مَا كُنْتُ مِنْ أَجَلِي عَلَى قَدْرِ

مَا شِبْتُ مِنْ كِبَرٍ، وَلَكِنِّي امْرُؤٌ قَارَعْتُ حَدَّ نَوَاجِذِ الدَّهْرِ

فَرَأَيْتَنِي عُضْلاً مُوَقَّحَةً عَزَّتْ، فَمَا تُسْطَاعُ بِالْكَسْرِ

فَلِذَاكَ صِرْتُ مَعَ الشَّبِيبَةِ نَازِلاً فِي غَيْرِ مَنْزِلَتِي مِنَ العُمْرِ

إنَّ الشاعر في الأبيات السابقة ينظر نظرة إيجابية للشيب، فقد تصالح مع شيبه ورضي به، ولم يعد ينظر إليه على أنه علامة ضعف، بل ينظر إليه على أنَّه علامة قوة؛ فشيب الشاعر ليس من الكِبَر والضعف، بل بسبب الدهر وصروفه، ومواجهته الشدائد والمصائب وتغلبه عليها على شدتها، وهو لم يتصالح مع الشيب فحسب، بل نجده يمتدحه وذلك في قوله:(سيان شيبي والشباب) وفي تقديم كلمة (سيان) على(شيبي والشباب) تعبير عن الحالة الوجدانية للشاعر، ونجده يخصّ شيبه هو بالذات؛ وذلك من خلال الإضافة إلى ياء المتكلم (شيبي) ؛ فلذلك شيب الشاعر ليس من الكِبَر كغيره من الناس.

وقد قدّم أبو هلال العسكري(ت ٣٩٥ ه) (١٣٥٢ه) للأبيات الثلاثة الأولى في ديوان المعاني بقوله: " وأول من ذكر أنَّه شاب من غير كِبَر ابن مقبل في قوله ... الأبيات الثلاثة .

وقد استثمر الشاعر الإيحاء لبعض الألفاظ، ووظّفها للتعبير عن أفكاره ومشاعره من مثل: (تنكرت) الذي أبرز من خلاله كره النساء للشيب، وإعراضهن عمن ظهر برأسه من الرجال.

ويتضح من الأبيات السابقة أن الشاعر يرى أنَّ الشيب نوعان: الأول: شيب الشيخوخة والعمر الزمني، والثاني: شيب المعاناة والصراع والكفاح، وهذا هو ما واجهه الشاعر كما قال سابقاً. فضلاً عن أنَّ الشاعر عمد إلى الاستعارات، فيما مرَّ، في قوله: (قارعت حدَّ نواجذ الدهر)، و(فرأيتها عُضلاً)، ولا شكَّ أن الخيال عنصر ضروري لتجسيد الشعور ونقله، قال كولريدج: " الشعر من غير المجاز يصبح كتلة جامدة؛ ذلك لأنَّ الصور المجازيّة جزء ضروري من الطاقة التي تمدُّ الشعر بالحياة" . (اليزابيث درو ١٩٦١م)

الشيب وانكسار النفس الشاعرة، محاولة المواجهة

ويربط الشاعر بين ظهور الشيب وانقضاء ملذات الحياة ومجالس اللهو، قال : (الديوان ١٩٩٥)

بَلْ مَا تَذَكَّر مِنْ كَأْسٍ شَرِبْتَ بِهَا
وَقَدْ عَلَا الرَّأسَ مِنْكَ الشَّيْبُ وَالصَّلَعُ

فالشاعر يستنكر مجرد تذكر أيام اللهو بعد أن علا الشيبُ رأسه، فالشيخ لا يليق به الميل إلى اللهو بأي شكل من أشكاله، فالشعرة البيضاء ما هي إلاّ تهديد وإخبار " بالقضاء والفناء والتناهي." (فالتر براونه ١٩٦٣) ، وقد عمد الشاعر إلى استخدام التوكيد للتعبير عن مظاهر الشيخوخة، التي ارتسمت على ملامحه (وقد علا الرأسَ الشيبُ)، وتبدو قدرة الشاعر في استثمار العلاقات الصوتية واستغلالها في التعبير عن اللحظة الشعورية التي يصدر عنها، أو في الدلالة على موقفه النفسي؛ فقد كرّر صوت الشين والراء – في البيت السابق- وهما مهموسان واحتكاكيان (كمال بشر ١٩٩٠م)، يلائمان حالته اليائسة، ومعاناته الكبيرة.

ويرى ابن مقبل أنَّ الشيب يذهب بكبرياء صاحبه، قال : (الديوان ١٩٩٥م)

وَلا تَقُولَنَّ زَهْواً ما تُخَبِّرُنِي
لَمْ يَتْرُكِ الشَّيْبُ لِي زَهْواً وَلَا الكِبَرُ

فنجد الشاعر يضيق ذرعاً بالشيب، الذي هو رمز للشيخوخة والكبر والضعف؛ لأنّه لم يترك له شيئا ليفخر به، ونحس حالة من اليأس الاستسلام تسيطر على الشاعر، وقد عمد إلى التقديم في عبارة (لم يترك الشيب لي زهواً)؛ إذ قدّم الجار والمجرور(لي) على المفعول به، فأبرز هذا التقديم أثر الشيب في نفسية الشاعر.

ويُجلي الشاعر انكساره النفسي للمرأة (حُرَّ) ويُظهر عجزه وتقدّم سنّه لها، ومحاولته التعويض بالمواجهة ومقاومة بياض شعره، قال : (الديوان ١٩٩٥)

يَا حُرَّ أَمْسَيْتُ شَيْخَاً قَدْ وَهَى بَصَرِي
وَاَلْتَاثَ [ما] دُونَ يَوْمِ الوَعْدِ مِنْ عُمُرِي
يَا حُرَّ مَنْ يَعْتَذِرْ مِنْ أَنْ يُلِمَّ بِهِ
رَيْبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي غَيْرُ مُعْتَذِرِ
يَا حُرَّ أَمْسَى سَوَادُ الرَّأْسِ خَالَطَهُ
شَيْبُ القِذَالِ اخْتِلَاطَ الصَّفْوَ بِالْكَدَرِ
يَا حُرَّ أَمْسَتْ تَلِيَّاتُ الصِّبَا ذَهَبَتْ
فَلَسْتُ مِنْهَا عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرِ
قَدْ كُنْتُ أَهْدِي وَلَا أُهْدَى، فَعَلَّمَنِي
حُسْنَ المَقَادَةِ أَنِّي فَاتَنِي بَصَرِي
كانَ الشَّبَابُ لِحَاجَاتٍ، وَكُنَّ لَهُ،
[فَقَدْ] فَرَغْتُ إِلَى حَاجَاتِيَ الأُخَرُ

ما يستوقفنا في هذه الأبيات السابقة هو (يا حُرَّ) الذي افتتحت به الأبيات الأربعة الأولى، فهو يخاطب المرأة (حُرَّ) مستخدماً أداة النداء (يا)، وكأنَّه ينفث آهاته وزفراته مع مد الألف، وتكرار اسم المرأة شاع كثيراً في الشعر العربي القديم " ولا شكَّ أنَّ تكرار الاسم يعكس طبيعة علاقة الشاعر به، وهو تكرار لا يجيء كيفما اتفق، بل ينبض بإحساس الشاعر وعواطفه" (إيليا حاوي ١٩٧٩م) ، والتكرار لم يكن لاسم المرأة فقط، بل هناك تكرار (النداء)، و (أمسى)، و(الشيب) فيشكِّل التكرار أساس الأسلوب، الذي شكَّل هذه الأبيات، وهذا يدلّ على أنَّ الشاعر ينجذب إلى نقطة مركزيّة لا يستطيع أنَّ يتحوَّل عنها، يأتي التكرار على مستوى بداية الأبيات الأربعة الأولى الظاهرة الأسلوبيّة القادرة على ترجمة مشاعر الشاعر وإبرازها، وهذا النداء لا يخرج عن كونه أسلوباً شائعاً " لكنه يكتسب قيمة انفعاليّة بدخوله إلى بناء النص الشعري ليبرز دلالات الإيقاع النفسي العميق للشاعر ويشكلّ إحساساً بالغربة " (موسى ربابعة ٢٠٠١م). إنَّ كثافة النداء والتكرار تتناسب مع الموقف المأساوي، وتبرز لنا التضاد القائم بين الشيب وما يشيعه من قلق وأسى، وبين الشباب وما ينشره من بهجة وفرح، " ومعلوم أنَّ جميع أدوات النداء والاستفهام تمتع بقيم أسلوبيّة تأثيريّة ." (مُحَمَّد العبد ١٩٨٩م)، إنَّ تكرار ثلاثيَّة (المرأة والشيب والشباب) في هذه الأبيات يكشف لنا ضيق الشاعر بالشيب وحنينه إلى الشباب، فالشيب مظهر من مظاهر قسوة الزمن، الذي ينحني الإنسان أمامه مستسلماً.

وإنَّ التصوير عنصر مهم في إبراز إحساس الشاعر بالضيق من التحوّل، الذي أصابه، وذلك في تشبيهه اختلاط الشيب بسواد الرأس (باختلاط الصفو بالكدر).

إنَّ ذهاب الشباب وقرنه بإلغاء الماضي تأكيد للعجز الإنساني الذي لا يصمد أمام التحوّل، وتحمل عبارة (أمست تليات الشباب ذهبت) شعورا بإلغاء الماضي، الذي لم يعد الشاعر قادرا على امتلاكه؛ ولذلك جاء تكرار كلمة (أمسى)؛ لتبرز إحساس الشاعر بأنّه يفقد الشباب ويفقد معه كل جميل في هذه الحياة، وليس الشباب الذي يبكيه الشاعر إلا بكاء للحياة. وعندما يقول الشاعر(فلست منها على عين ولا أثر)، فإنّ هذا يتوّج الإحساس بالعجز والاستسلام النهائي أمام فاعليّة الزمن.

على أنَّ "ابن مقبل" يحاول، أحياناً، أن يرقع شيبه بالخضاب ومحاولات تغيير اللون،قال : (الديوان ١٩٩٥م)

رَامَيْتُ شيْبِي، كِلَانِـــا قـَائِمٌ حِجَجَـاً
سِتّيْنَ، ثُمَّ ارْتَمَيْنَـــا أَقْـــرَبَ الـفُقَـــرِ
رَامَيْتُـــهُ مُـنْذُ رَاعَ الشَّيْبُ فَـــالِيَتِـي
وَمِثْلُـهُ قَبْـــلَـهُ فِي سَالِـفِ العُمُـــرِ
أَرْمِـي النُّحُـــورَ فَـأَشْوِيهَـــا، وَتَثْلِمُنِي
ثَلْمَ الإِنَـاءِ، فَـــأَغْـــدُو غَيْرَ مُنْتَصِرِ
فِي الظَّهْرِ والرَّأْسِ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ
قَصْرُ الهِجَارِ وَفِي السَّاقَيْنِ كَالْفَتَرِ

فالشاعر يؤثر أن يبقى في جوّ الشباب، حتى لـــو وصل إلى مرحلـة المشيب، ووسيلتـه في ذلك، الخضاب الذي يحاول أن يطمس به الشيب، لكنـــه يعترف أن رفو الشيب وإخفائه لا يجـدي نفعاً أمـام وصول الشاعـــر إلى سن الستين، ونرجّح أن يكـون إخفاء الشيب ودفعـــه بالخضاب وسيلـــة هروب لـــــدى ابن مـقبل من مـواجهـة الواقـع، الذي لا يرتضيه؛ ولكـن هـذه الـوسيلـة (الشكلية) سرعان مـا تنكشف لدى الشاعـر؛ فيدرك فشلها وعـدم جـدواهـا، فيستسلم للزمن وفعلـــه؛ فيعـلن أنَّ سن الستين – في رأيـــــه- هـي سن الـــضعف والهزيمـة، فقـــد رامى شيبـه، لكنـه أعلن الهزيمـــة والاستسلام أمـــام الشيب في هـــذا العمـر، ويستوقفنـــا التكـرار لجملـــة (راميت شيبي)؛ ليكشف لنـا معـانـــاة الشاعـــر وصراعـــه المستميت مـــع الشيب قبل أن يستسلم، فـالشعور الـطاغي أو المسيطر عـلى الشاعـر لم يدفعـــه إلى اختيـار الكلـمة فحسب، بـــل إلى تـكـرارهـــا، وبهذا الشكل استطـاع الشاعـر أن ينقل تجربتـه العميقـة، وأن يثير إحساساً لـدى المتلقي " فالشاعر بشر يتحدّث إلى بشر، ويعمل جاهـــداً ليعثر على أجـــود الألفـاظ في أجـــود نسق؛ لكي يجعـل تجربتـه تعيش مـرَّة أخـرى لـدى الآخـرين ." (اليزابيث درو ١٩٦١م). وإنَّ المعجم اللغوي للشاعـر يكشف لنا هـذه المعاناة مع الشيب قبـل أن يستجيب لـواقعـه، فقـــد استخـدم في الأبيات السابقـة تسعـة أفعـــال، منها أربعـة أفعـال جـاءت بصيغـة المـاضي، وخمسة أفعـال جـاءت بصيغـة المضارع، والأفعـال الماضيـة جاءت جميعـــها؛ لتعبّر عن محاولات الشاعـــر إخفـاء شيبه بالوسائل المختلفة، أمّا الأفعال المضارعة، فهي تعبّر عن حال الشاعر في صراعه مع الزمن، هذا الصراع الذي لم يصمد له الشاعـر، وهزم في هذه المعركة، (فـــأغدو غير منتصر) وتركت آثارها في الشاعر؛ شيب في الرأس، وانحناء في الظهر، وتثلمه ثلم الإناء، وفتور في الجسم، فاللغة العربية تمتاز بمرونة نسبيّة في تركيبها ، ما أتاح للشاعر أن " يستوحي إمكانات اللغة ليؤثر في نفس المتلقي ، ولينقل إليه ما يعتلج في فكره من انفعالات وأحاسيس صادرة عن تجربة إنسانيّة ." (شكري عياد ١٩٨٨م) .

علاوة عـلى أنَّ الشاعـر اعتمد عـلى الـصورة الاستعاريّـــة في قـولـه: (راميت شيبي)، وقـولـه: (ثمَّ ارتمينا)، وقـولـه: (أرمي النحور)، " ولا ريب في أنَّ الاستعارة تـأتي في مـرحلـة بعـد التشبيـه، وتحتـاج إلى جهـد فني في صياغتهـا أكثر مما يحتاج إليه التشبيه، بل هي مرحلة راقية انتقل إليها التشبيه ." (يوسف خليف ١٩٨٣م).

الشيب والتصالح مع النفس الشاعرة

ويقرن الشاعر – في مقطوعة أخرى- الشيب بالصلاح وعمل الخير واكتمال الشخصية، حين قال : (الديوان ١٩٩٥م)

وَفِي الفَتَى بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ مُعْتَمَلٌ
فِي الصَّالِحِينَ، وَإِفْضَالٌ عَلَى الجَارِ

والشاعـر، هنـا، عقـلاني – إذا جـاز التعبير- فـلا ينبغي لـه أن يستمر في مـواجهـة الزمـن وفـاعـليته، فزمـن الشباب ولَّى إلى غير رجعة، وعلى الشاعر أن يتقبل ستّه وحاله، فعهد اللّهو والعبث انتهى، وجاء وقت الصلاح والتقى. ومما يجلب الانتباه خلو البيت السابق من الأفعال بمختلف أزمانها، واعتمد على الجمل الاسمية، وهذا يكشف عن الثبات والاستقرار لحاله ،ثم في تقديمه الخبر شبه الجملة (في الفتى) على المبتدأ (معتمل) والفصل بينهما بشبه الجملة (بعد شيب الرأس) يعكس إحساس الشاعر بالزمن فقد حلّت الشيخوخة محل الشباب، والشيخوخة تجسيد لزمن يوحي بالتعقل في معالجة الأمور .إنَّ اختيار الشاعر لهذا الأسلوب في التعبير عن حالته ينمّ عن أنَّ الموقف يتدخَّل في اختيار الأسلوب "فعلم الأسلوب يقرّر أنَّ نمط القول يتأثر بالموقف." (شكري عياد ١٩٨٢م).

النتيجة

توصلت الدراسة لـ" ثنائية الشباب والشيب في شعر تميم بن أُبي بن مقبل" إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها بما يلي :

١ – إنَّ ظاهرة الشباب والشيب في شعر "ابن مقبل" ذات صلة بنفسيته، فمثَّل الشيب له معاناة حقيقية؛ فقد عانى الشيخوخة وما يترتب عليها من ضعف وصدود المرأة عنه وسخريتها منه بسبب هرمه وضعفه؛ فكان شعره صورة حيَّة لهذه المعاناة.

٢ – يلتقي ابن مقبل في تجربته مع الشعراء الذين عانوا الشيخوخة في عصره .

٣ - تفرّد "ابن مقبل" عن شعراء عصره بأنَّه عزا ظهور الشيب في رأسه إلى تكالب الحوادث المفجعة عليه، ومواجهته الشدائد والمصاعب التي مرّت به ، وأثّرت في نفسه .

٤ – إن الشاعر حاول التشبث بالشباب والهروب من الشيخوخة بوساطة إخفاء الشيب بالخضاب، ولكن هذه الوسيلة لم تسعفه كثيراً مما اضطره للاستسلام والرضى بالأمر الواقع.

٥– إنَّ الشاعر نجح في توظيف الأساليب اللغويَّة من خبريّة وإنشائيّة بأنواعها، والألفاظ الموحية ، والبناء الصوتي للألفاظ ، وتقنية التصوير؛ للتعبير عن أفكاره ومشاعره ، ونقل تجربته مع الزمن ومعاناته من التحول الذي أصابه .

المصادر والمراجع

(١) الأيوبي، سعيد،(١٩٨٦م)،" عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي، ط٢، مكتبة المعارف، الرباط.

(٢) **براونه، فالتر،**(١٩٦٣)، "الوجودية في الجاهليّة "، مجلة المعرفة السورية،العدد الرابع، السنة الثانية: ١٥٦ – ١٩٠ .

(٣) بشر، كمال،(١٩٩٠)، الأصوات العربية (د.ط)، مكتبة الشباب ، القاهرة.

(٤) ابن جعفر، قدامة، (١٩٧٩م)، " نقد الشعر"، د. عبد المنعم خفاجي،مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة : ٨٦ وما بعدها.

(٥) أبو جعفر، مُحَمَّد بن حبيب، (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م)،"كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه"، ط١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ٢٨٩ .

(٦) حاوي، إيليا،(١٩٧٩)،" الأخطل في سيرته ونفسيته"، ط١، دار الثقافة، بيروت .

(٧) خليف، يوسف،(١٩٨٣)، "دراسات في الشعر الجاهلي"، ط١، مكتبة غريب، القاهرة.

(٨) درو، اليزابيث،(١٩٦١) ،"الشعر كيف نفهمه ونتذوقه"، ترجمة مُحَمَّد إبراهيم الشوش ط١، مكتبة منيمنة، بيروت.

(٩) ربابعة، موسى،(٢٠٠١)،"قراءات أسلوبيَّة في الشعر الجاهلي"، ط١، مكتبة الكتاني ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع، إربد .

(١٠) ابن رشيق، أبو علي الحسن،(١٩٦٣)، "العمدة في صناعة الشعر ونقده"،تحقيق مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، الأنهرة، جـ٢: ٢٩١.

(١١) **السنجلاوي، إبراهيم موسى،** (١٩٨٧م)، " قراءة ثانية في بعض جوانب رائية عمر بن أبي ربيعة"، مجلة مؤته للبحوث والدراسات، الأردن ، ٢، ١: ٧٧ – ١٠٥.

(١٢) سيبويه (ت١٨٠هـ) ،(١٩٨٤م) ، " الكتاب" ، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة .

(١٣) السيد، عز الدين علي ،(١٩٨٦)، " التكرير بين المثير والتأثير"، ط٢، عالم الكتب، بيروت.

(١٤) صادق ، رمضان، (١٩٩٨م) ، " شعر عمر بن الفارض ، دراسة أسلوبية " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، لقاهرة : ١١٥ .

(١٥) العبد، مُحَمَّد،(١٩٨٩) ،"اللغة والإبداع الأدبي"، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

(١٦) عبد المطلب، مُحَمَّد، (١٩٩٥)، "قراءات أسلوبية في الشعر الحديث"، ط١،الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

(١٧) العسقلاني، ابن حجر الحافظ شهاب الدين، (١٣٢٨هـ)، "الإصابة في تمييز الصحابة"، (د.ن)، القاهرة، جـ١: ١٩٥ .

(١٨) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله،(١٣٥٢هـ)، "ديوان المعاني"، مكتبة القدسي، القاهرة، جـ٢: ١٦١ .

(١٩) عياد، شكري مُحَمَّد،(١٩٨٨)، " اللغة والإبداع "، ط١، انترناشيونال برس، القاهرة.

(٢٠) عياد، شكري مُحَمَّد (١٩٨٢) ، " مدخل إلى علم الأسلوب" ، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض :٤٧

(٢١) فضل، صلاح،(١٩٩٥)،"علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته"،ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٢٢) ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبدالله بن مسلم،(١٩٥٠)، "الشعر والشعراء"،ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: ٤٢٥.

(٢٣) ماكليش، أرشيبالد، (١٩٦٣م) ، " الشعر والتجربة "، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ،دار اليقظة العربية، بيروت: ٢٣.

(٢٤) ابن مقبل، تميم بن أُبي،(١٩٩٥)، "ديوان ابن مقبل"، تحقيق. عزّة حسن،ط١، دار الشرق العربي، ، بيروت.

(٢٥) ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بم مكرم،(د.ت)، "لسان العرب المحيط" ، دار الفكر، بيروت.

The Binary Of Youth And Old Age In the Poetry of Tameem Bin Ubei Bin Mukbil

Dr.Insaf Muhammad AL- Momani - Dr. Muhammad Majid AL- Dakheel

Al Balqaa' Applied University, Irbid Community College, Irbid/Jordan

Abstract

on purpose – sometimes-the metaphoric image This study deals with the phenomenon of youth and old age in the poetry of" Bin Mukbil" whose life span bridged the time of paganism and that of Islam, taking in to that he had along life. he was the one who experienced the pleasures of life in his youth. Naturally, his sense of life changed in his old age so he feels week and low aspired, abandoned aspects of entertainment, life raptures and it's delight and adventures with women. the study investigated this change in the poet's life through what was manifested in his poetry and the aspects of this change.

The results that the study has reached indicates that the youth and old age phenomena in ibn mukbil poetry has a connection with his psychology ,so the old age appeared to be a real struggle for hem, as he suffered from the graying and its consequences resulting in weakness and neglecting from women, the poet distinction was that he imputes the grey hair in his head to the tragedies that he suffered and affected his soul, the poet connects the between the love and the youth. the imaging technique appeared to be a significant factor in displaying the poet misery derived from his environment

Key words: TheBinary, Youth, Old Age, Ancient poetry ,Ibn Mukbil.